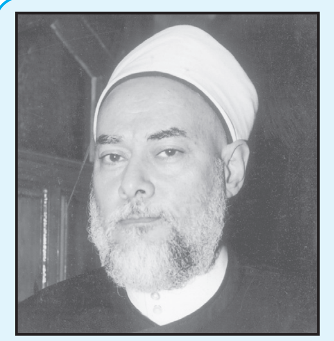


البخاري وكتابه الجامع الصحيح



أ.د/ علي جمعة (*)

الحمـد لله رب العالمين، والصلاة والسـلام على سـيدنا محمد بن عبـد الله خيـر الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسـان إلى يوم الدين، آمين.

ثـم أما بعـد، فإن الإمـام البخاري والذي سـطر اسـمه التاريخ منذ مـا يزيـد على الألف سـنة هو الإمام الحافـظ المتقن الثقـة، المجتهد المحدث، الذي جمع من الحديث أصحه، ومن الروايات أتقنها، ومن الألفاظ أدقها، وهو إمام قَلَّما يجود الزمان بمثله.

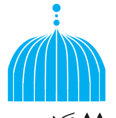
إن الإمـام البخـاري علامـة فارقـة فـي تاريـخ التـراث الإسـلامي، حيث فعل غير مـا درج عليه المحدثـون المعاصـرون لـه مـن مجـرد الجمع للروايات وحشـدها، بل فكر في تنقيتها وانتقاء الصحيح منها دون الضعيف أو الموضوع، فكان بذلك مؤسسًـا لمنهج جديد في الفكر والتأليف الحديثي وغيره.

ونحن اليوم إذ نقدم موجزًا عن شخصية الإمام البخاري وتعريفًا بكتابه (الجامع الصحيح) نعبر لهذا الإمام عـن بالغ تقديرنا واحترامنا لمجهوده الذي خدم به العلم، وخدم به الدين والأمة، وندعو الباحثيـن والمطلعيـن بشـأن العلـوم الإسـلامية وغيرها من العلوم أن يسـتفيدوا من تجربة الإمام البخـاري الحياتيـة والعلميـة والفكريـة، فتلك الفائدة التي يمكن لعامة المسـلمين أن يتعلموها من الإمام تعـد موازيا للفائدة التي تحصل للقارئ وللمسـلم بمعرفـة الصحيـح مـن كلام سـيد المرسـلين ورسـول رب العالمين سيدنا محمد، مـما يجعله يقـدم على شـئونه الخاصـة والعامة بهدي الإسلام ووحيه.

ولقـد كانت تجربـة البخـاري ملهمًـا ومؤثرًا علـى أرواح الأوائل الذين اضطلعـوا بإخراج كتابه وطباعته والعناية بـه، فنجد العلماء المكلفين من قبل السـلطان عبد الحميد بإعداد كتاب البخاري للطبـع، كيـف اشـتركوا وتعاونوا على تحسـينه وتجويـده ومراجعتـه، وكيف تفانـوا في تصحيح مـا وقع من الهنات البسـيطة واسـتدراكها، إن في هـذا الأمر علاوة علـى ما حباه الله لهـؤلاء العلماء من جودة القريحة وحسـن الفكر والفهم أمرًا آخر يتعلـق بالروح التي أودعهـا المؤلف الأول كتابه، وهي روح العمل الدءوب والحب لأحاديث الرسول والتفاني في إقصاء الضعيف وإبقاء الصحيح.

وفـي النهايـة نسـأل الله تعالـى أن ينفعنا بما علَّمنـا، وأن يعلمنـا ما ينفعنـا، وأن يجعل أرواح أوليائنـا وعلمائنـا ذخـرًا لنـا، ودافعًـا وملهمًـا لصواب السعي بعد الوعي.

(*) عضو هيئة كبار العلماء.



أولا: شخصية الإمام البخاري.

١ - نَسَب البخاري:

هو الإمام الحافظ أَبُو عَبْد الله البُخَاريُّ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَه، وقيل: بَذْدُزْبَه، وهي لفظة بخارية، معناها الزرَّاعُ.

قال الإمام النووي في (تهذيبه): ورُوِّينا عن الخطيب الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي قال: بَرْدِزْبَه مات على المجوسية.

وأما المغيرة فقد كان مجوسيًا وأسلم على يدي اليمان الجعفي والي بخارى، وحفيد اليمان الجعفي هو الإمام المُسْنَديُّ أبو جعفر عبد الله بن محمد شيخ ما وراء النهر، وهو أستاذ البخاري.

وكان يُقال للبخاري: الجُعْفِيّ؛ لأنه مولى يمان الجعفي ولاءَ إسلام.

وأما أبو الحسن إسماعيل بن إبراهيم والد البخاري، فقد اجتهد في طَلب العِلْم، وذكره ابن حبان في كتابه (الثقات) في الطبقة الرابعة قال: يروي عن حماد بن زيد ومالك، وروى عنه العراقيون. وذكره أيضًا البخاري في (التاريخ الكبير) فقال: وصَحبَ ابن المبارك.

وقد أثَّرت تلك البيئة العلمية التي نشأ فيها البخاري عليه أيما تأثير، حيث تربَّى على حب العلم والحرص على تحصيله.

وروي أن إسماعيل - والد البخاري- قال حين موته إنه لا يَعْلَمُ في ماله حرامًا ولا شبهة، مما يكشف أن الإمام البخاري تربى في بيت علم وتقوى وورع، مما أنبته على حُب الآخرة والخوف من المعصية.

وقد وَرِثَ البخاري من أبيه مالاً جليلاً، وكان هذا يساعده على طلب العلم بشرف نفس وعفة وإباء.

وكذلك كانت أم البخاري مستجابة الدعاء، فقد رُوي أن محمد بن إسماعيل البخاري ذهبت عيناه في صِغره، فرأت والدته الخليل إبراهيم ﷺ في المنام، وقال لها: يا هذه، لقد رَدَّ الله لولدك بصره لكثرة دعائك. قال: فأصبح وقد رَدَّ الله له بصره.

٢ - مولد البخاري ونشأته:

وُلد البخاري بالاتفاق في مدينة (بُخَارَى)، بعد صلاة الجمعة، لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومئة من الهجرة، وتوفي والده وهو صغير، فنشأ في حجر أمه، ثم حج سنة عشر ومئتين مع أمه ومع أخ له اسمه (أحمد)، وكان أحمد هذا أسَنَّ منه، وأقام هو بمكة، ورجع أخوه فمات في بخارى.

٣ - طلبه للعلم واجتهاده فيه:

طلب العلم أولاً في بخارى، والتي فتحها القائد المسلم سعيد بن عثمان بن عفان سنة خمس وخمسين للهجرة، وصالحه أهلها وأهل سمرقند، ولكنها لم تخضع للإسلام تمامًا إلا في عهد الوليد بن عبد الملك، على يد قائده الشجاع (قتيبة بن مسلم الباهلي)، الذي أرسى قواعد الإسلام في بلاد ما وراء النهر، ما بين سنتي سبع وثمانين وأربع وتسعين للهجرة.

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: كان أبو عبد الله البخاري إذا كنت معه في سَفَر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ، فكنت أراه يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة في كل ذلك يأخذ القَدَّاحَة فيُوري نارًا بيده ويُسْرِج، ويخرج أحاديث ويعلِّم عليها، ثم يضع رأسه.

فقلت له: إنك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظني؟ فقال: أنت شاب فلا أحب أن أفسد عليك نومك.

٤ - رحلاته في طلب العلم:

قال الفِرَبْري: سمعت محمد بن أبي حاتم ورَّاق البخاري يقول: سمعت البخاري يقول: أُلْهِمْتُ حفظ الحديث وأنا في الكُتَّاب.

قلت: وكم أتى عليك إذ ذاك العمر؟ فقال:

عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكُتَّاب فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره. فقال يومًا فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت: إن أبا الزبير لم يروِ عن إبراهيم، وقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل فنظر فيه ثم رجع فقال: كيف هو يا غلام؟ فقلت: هو الزبير، وهو ابن عديٍّ، عن إبراهيم. فأخذ القلم وأصلح كتابه وقال لي: صدقت.

وقال: ولما طعنت في ست عشرة حفظت كُتُبَ ابن المبارك، وعرفت كلام هؤلاء وهم أصحاب الرأي.

وتأخرت رحلة الإمام البخاري إلى الحجاز، فقد رحل إليه حاجًا وطالبًا للعلم سنة ست عشرة ومئتين.

ولو رحل إليها في بداية طلبه للعلم لأدرك من الشيوخ ما أدركه أقرانه من طبقة عالية ما أدركها. وإن كان قد أدرك ما قاربها، كيزيد بن هارون، وأبي داود الطيالسي.

قال: لما طعنت في ثماني عشرة صنَّفت كتاب (قضايا الصحابة والتابعين)، ثم صنفت (التاريخ) في المدينة عند قبر الرسول ﷺ، وكنت أكتبه في الليالي المقمرة. قال: وما من اسم في (التاريخ) إلا وله عندي قصة إلا أني كرهت أن يطول الكتاب.

وقال أبو بكر بن أبي عياش الأَعْيَن: كتبنا عن محمد بن إسماعيل وهو أمرد - أي صغير - على باب محمد بن يوسف الفريابي.

ولا يخفى أن الفِرْيابي مات سنة اثنتي عشرة ومئتين، وكانت سِن البخاري حينذاك ثماني عشرة سنة.

وقال: لقيت أكثر من ألف رجل من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر، لقيتهم كَرّاتٍ، أهل الشام ومصر والجزيرة مرتين، وأهل البصرة أربع مرات، وبالحجاز ستة أعوامٍ، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد.

يتبع....

